

ابن قزمان شخصية شعرية تاريخية

بقلم الأستاذ عز الدين المدني

قد يكون ابن قزمان من أهم الزجالين العرب على الإطلاق قديما وحديثا. لذلك اعتنى الدارسون من مستشرقين وعرب في العصر الحديث اعتناء شديدا بشخصيته المتفردة بأزجاله، ومحتواها اللغوي، وبشكلها العروضي، وبما تركته أزجاله من أوصاف دقيقة وصحيحة للحياة الاجتماعية، وخاصة منها الشعبية في مدينة قرطبة الأندلسية خلال النصف الأول من القرن 6 / 12. ويشكل صدور ديوان ابن قزمان عن المجلس الأعلى للثقافة بمصر السنة الماضية (1995) حدثا أدبيا بالغ الأهمية بتحقيق وتصدير المستعرب الإسباني فيديريكو كورينتي الذي يلقب نفسه بالقرطبي، ويتقدم الدكتور محمود علي مكي الأستاذ الباحث المختص في الأندلسيات، ويتمهيد للأستاذ الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الذي بذل جهده في سبيل إخراج الديوان في نشرة أنيقة ممتازة.

وتكمن أهمية هذا الحدث الأدبي في أن هذا الديوان قد صدرت أزجاله كلها مطبوعة بالحرف العربي لأول مرة، بالإضافة إلى التحقيق، والتعليق، والشرح والفهارس، ذلك أن الطباعات السابقة لهذا الديوان كانت بالحرف اللاتيني، ولا يطلع عليها ولا يدرسها إلا الباحثون، والمختصون والدارسون. وهو مجال ضيق يصعب على القارئ العربي الوصول إليه، لذا سهل المجلس الأعلى المصري للثقافة مطالعة هذا الديوان، وقراءته بالحرف العربي، وجعله في متناول المثقفين العرب.

ولديوان ابن قزمان حكاية طويلة، كما قال الدكتور محمود علي مكي في تقديمه الواضح الوافي. فلقد أبرز صاحب التقديم أطوار المغامرة التي عاشها ديوان ابن قزمان بين أيدي المستشرقين المنتمين لاثنتي عشرة دولة، طوال أكثر من مائة سنة، انطلاقا من اقتناء المخطوطة الوحيدة للديوان في الشام أو في العراق من طرف أحد القناصل المستعربين، مرورا بإحدى المكتبات القيصريّة الروسية. وبهولاندا، وانتهاء بالمستعرب الإسباني الحالي فيديريكو كورينتي القرطبي الذي أراد أن

يصدر ديوان ابن قزمان بتحقيقه وشرحه وفهارسه في البلاد العربية، وبالحرف العربي، حتى يطلع عليه القارئ العربي سواء كان مختصا أو مثقفا بشكل عام.

ولا بد أن نلاحظ أن المستشرقين كانوا سباقين في تحقيق هذا الديوان، وشرحه، وتعليق عروضة، ونشره في نشرات علمية متعاقبة. وبين الدكتور محمود علي مكي أن العرب المحدثين بدؤوا يعتنون بهذا الديوان، عناية بحث وشرح وتعليق، وعلى رأسهم المرحوم الدكتور عبد العزيز الأهواني. ومن أبرزهم في المغرب عباس الجراري، ومحمد بن شريفة، وعبد الحميد حاجيات، وهم المختصون في الأندلسيات.

من هو ابن قزمان ؟

هو أبو بكر محمد بن قزمان، وهو غير سميّه وعمه ابن قزمان الذي تولى الوزارة في عهد ملوك الطوائف. وقد وُلد زجالنا بمدينة قرطبة في أحضان أسرة ثرية عالمّة، مما مكّنه من الحصول على نصيب وافر من العلوم والآداب ومن رفاهة العيش. وقد استبعد المحقق الإسباني أن يكون ابن قزمان قد ولد قبل معركة الزلاقة الحاسمة التي انتصر فيها يوسف بن تاشفين وجيوشه المرابطيّة والأندلسيّة على جيوش النصارى. وهي معركة خلّدها التاريخ العربي في مصادره القديمة والحديثة. لكن المحقق عين سنة وفاته وهي 1160 / 555 هجرية المعروفة بسنة الأخماس التي هزم فيها عبد المؤمن بن علي، النورمان وأجلاهم عن مدينة المهدية. وبذلك، فقد عاش ابن قزمان أصداء ما تبقى من ملوك الطوائف، وكامل العهد المرابطي، وصدر العهد الموحد في الأندلس. ويمكن للباحث أن يعتبر الديوان وثيقة سوسيولوجية أو على الأقل شهادة يغلب عليها الصدق في وصف البيئة الاجتماعية الراقية منها والشعبية التي نشأ فيها ابن قزمان، وتحرك بأزجاله للاتصال برؤوسها وأعلامها داخل قصورهم، ولعاشية الرعايا الشعبين في الشوارع والبطاح والأزقة والأسواق وداخل البيوت، وحتى السجون. لقد قصد وصفهم في الأعياد والمواسم في المأكّل والمشرب، وفي علاقاتهم باليهود والنصارى. وفي حربهم وسلمهم، وفي ظرفهم وكياستهم، وكذلك في خلاعتهم وصلفهم، وفضائحهم، على مرّ أيام السنة. ولقد لاحظ المحقق الإسباني أن الأوضاع الاقتصادية قد بدأت في التدهور في ذلك العصر بعد الازدهار الذي عرفته قرطبة والأندلس بأسرها من قبل.

ومهما يكن من أمر، فإن أزجال ابن قزمان يمكن اعتبارها - على الصعيد الألسني - وثيقة ندرك من خلالها كيف اعتمدت لهجة قرطبة على اللغة العربية اعتمادا وافرا، وكيف استوعبت الكلمات والتعابير الأعجميّة من جهة والكلمات الأمازيغية من جهة ثانية. ولاحظ المحقق الإسباني أن اللهجة القرطبية قد انقرضت تماما، ولذلك وجد المستشرقون ومعهم المحقق الحالي صعوبة في ضبط عدد من الكلمات والتعابير التي وقع «تصويبها» غلطا خلال القرون الماضية أو تعويضها بكلمات وافدة من لهجات مشرقية عربية.

وقد أثنى الدكتور محمود علي مكي على الشقافة اللغوية واللهجية التي اكتسبها المحقق الإسباني الذي كتب شعرا عربيا في أول شبابه، وتعلم اللغات السامية مثل العبرية والحميرية، وعاش عددا من اللهجات العربية اليوم مثل المصرية. ولا بد أنه علي اطلاع واف علي اللهجات المغاربية : الليبية والتونسية والمغربية والجزائرية، بالإضافة إلى معرفته عددا من اللغات الأوروبية كالإسبانية، طبعاً، والإنجليزية. إذ الغاية التي عمل من أجل تحقيقها

المستعرب الإسباني هي استعادة اللهجة القرطبية كما كانت بالضبط. وهو عمل دقيق وشاق ليس في تناول أي كان من الناس، ولو من المختصين.

لهجة الأزجال :

والغريب أن هذه الأزجال مفهومة في معظمها رغم الفوارق الموجودة بين هذه اللهجة القرطبية القديمة وبين اللهجة التونسية. بل إن عددا وافرا من الكلمات والتعابير القرطبية هي نفس الكلمات والتعابير التونسية من لهجة العاصمة ولهجة صفاقس ولهجة بعض مدن الشمال التي أسسها أو سكنها المهاجرون الأندلسيون عبر القرون الماضية. وبالإضافة إلى كل ذلك فإن هذه الأزجال تضيء نصوص المألوف التونسي إضاءة كبرى. وكلما قرأناها ورددتها، واسترجعت إيقاعها اللفظي والنزلي، أدركت إدراكا أعمق تلك النصوص التي يقال إنها وفدت مع المهاجرين الأندلسيين في صدورهم، واختلطت باللهجات المحلية التونسية أيامئذ حتي وصلت إلينا بنكهتها الخاصة، ملفوفة في عبيرها الأندلسي العريق.

ولم يكتف المستعرب الإسباني برسم أزجال ابن قزمان بالحروف العربية، وإنما رسمها حسب نطقها الذي يخضع للعروض الخليلي. ويبدو أن النظريات الفونولوجية التي بينها مفصلة في تصديره والتي تقول بالنبر هي المفتاح «السحري» الذي فك به شعرية الزجل الأندلسي، وزجل ابن قزمان، فكًا حاسما، وأرجع الفروع إلى الأصول التاريخية، ووقف على التعديلات، والتحويلات، والابتكارات التي أدخلها فن الزجل على العروض.

ويشتمل ديوان ابن قزمان الذي سماه إصابة الأغراض في ذكر الأعراض على 149 زجلا طبق ما احتوته المخطوطة الوحيدة المعروفة بالصفدية عند المختصين. لكن المستعرب الإسباني أضافا إليها أزجالا أو مقاطع من أزجال كانت مفرقة بين كتب أخرى مثل كتاب العاقل الحالي والمرخص الغالي لصفي الدين الحلي، وكتاب المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي، والمقدمة لعبد الرحمان بن خلدون، وكتاب عقود الآل في الموشحات والأزجال للنواجي الخ ... فبلغ بذلك عدد الأزجال أو قطع الأزجال 193. وهذه المجموعة الكبرى من الأزجال تعتبر «الأعمال الكاملة» لابن قزمان كما نقول اليوم نحن في عالم التأليف والنشر.

وفي نهاية هذا العرض لعل القارئ يتساءل عن مدى أهمية أزجال ابن قزمان خاصة، وعن خطورة الزجل الأندلسي عامة. فنجيب بأن الزجل قد يكون هو الفن الشعري الوحيد الذي تفردت به الأندلس طوال قرون، وبأنه حظي بمنزلة اجتماعية عريضة جدا، فأسهمت بالتعبير عنه ونشره عليّة النخبة من الأندلسيين، كما أسهمت فيه الطبقات الشعبية الأندلسية لا في قرطبة فحسب بل أيضا في سائر المدن الأندلسية مثل إشبيلية وغرناطة. ثم نقل المثقفون الأندلسيون هذا الفن إلى المشرق العربي، وغرسوه هناك، وأشاعوه عبر جميع طبقات المجتمع العربي. ولذلك يعتبر الزجل الأندلسي عامّة، وأزجال ابن قزمان خاصة، جانبا هاما من التراث العربي اللغوي، والشعري، والاجتماعي. وما اهتمام المستعربين بهذا الفن الشعري العربي، والبحث عنه ودراسته إلا للكشف عن الجذور الشعرية التي أسست الشعر الأوروبي (الإسباني، البرتغالي، الفرنسي، الإيطالي، الإنكليزي، الألماني) حسب رأي المستعرب الإسباني ريبيرا وتطبيقاته بالبحث والمقارنة والاستقراء التاريخي بين نهاية القرون الوسطى وفجر النهضة الأوروبية، وهذه الجذور هي الزجل الأندلسي وأزجال ابن قزمان التي تحتل منزلة مرموقة ومتميزة لأنها سهلت هذا الفن وجعلته راقيا عاليا.